٥- سيدنا يعقوب عليه السلام

أول أحفاد الخليل إبراهيم

لأكثر من خمسة عشر يومًا ظل العقل والقلب والضمير، كل منهما مشغول فى بيان موقفه من قصة ابتلاء سيدنا يعقوب عليه السلام ٠٠ خاصة وأن هذا النبى الكريم لم يشر إليه الكثير من المؤرخين فيما يخص حالات الابتلاء إلا حين ابتلاه رب العالمين فى ولده يوسف عليه السلام وبقية أولاده الأحد عشر !٠

وبعد هذه المدة من التفكير داخل نفس كاتب هذه السطور ٠٠ وبعد استقرار هؤلاء الأبطال الثلاثة العقل والقلب والضمير على ضرورة وجود هذا النبى الكريم ضمن الصحبة المباركة لهؤلاء الأنبياء والرسل من الذين ابتلاهم اللّه ٠٠ فقد بات علينا أن نفسح له الأوراق تلو الأوراق لكى نحدثكم عما لاقاه من ابتلاءات سواء فى ذاته حين رماه بعض مؤرخى أهل الكتاب بالكذب وتقولوا عليه الأقاويل غير الصحيحة ٠٠ حين ادعوا تحايله على أخيه من أبيه إسحق لكى ينال درجة البكورية والتى كان لها شأن عظيم آنذاك وكما سوف نبين ذلك فى حينه !٠

ومن بعد ابتلاء البشر لهذا النبى الكريم بالأباطيل ٠٠ جاء موعده مع الابتلاء الأكبر الذى دبره رب العالمين بخصوص ما فعله أولاده فى أخيهم الصغير يوسف عليه السلام ، الأمر الذى جعله يعيش فى لوعة من فقدان صغيره ٠٠ وتفرق بقية الأولاد٠

هذا الابتلاء بعينه قد جر عليه ابتلاء آخر فى صحته ٠٠ حين ذهب بصره من كثرة الحزن والبكاء على ابنه الصغير يوسف وفراق بقية الأولاد !٠

وفى ظل هذه الابتلاءات الشديدة صبر سيدنا يعقوب عليه السلام وتمسك بوعود

اللَّه له ·· فجزاه اللَّه خير الجزاء ·· حين لم شمله وأولاده بعدما رزق اللَّه ابنه يوسف بمُلك وعرش مصر، وكذلك استرد صحته وعافيته وعاش مكرمًا فى ظل رعاية اللَّه ·· بعد هذا الصبر الطويل ، وحتى توفاه اللَّه·

وكان علينا من قبل الوقوف تفصيلاً على هذه الابتلاءات التى اختص اللَّه بها عبده ونبيه يعقوب عليه السلام ·· ضرورة معرفة الشىء اليسير عن حياة هذا النبى الكريم ، وأصله ونسبه ·· خاصة وأنه يعتبر وفق ما جاء بالقرآن الكريم الحفيد المباشر لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، من ولده إسحاق عليه السلام ··

ومما لاحظناه فى هذا السياق أن العديد من كتب التاريخ والتفسير قد اهتمت اهتمامًا خاصا بنبى اللَّه يعقوب ·· لسببين ، الأول أنه الحفيد الأول لسيدنا إبراهيم الخليل ·· والثانى لأنه والد يوسف عليه السلام ذلك النبى الكريم ، الذى اختصه رب العزة بالحكمة والجمال والحكم والنبوة·

ويقول شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى عن موقع نبى اللَّه يعقوب فى القرآن الكريم : إن حديث القرآن عن يعقوب عليه السلام ·· قد تكرر بهذا الاسم ست عشرة مرة منها قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿**وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة : ١٣٢]·

وفى سورة ص : ﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**﴾ [ص : ٤٥]·

كما أطلق القرآن الكريم على يعقوب عليه السلام لفظ إسرائيل ، وجاء ذلك مرتين إحداهما فى قوله تعالى : ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [آل عمران : ٩٣]

والثانية فى قوله تعالى : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن النَّبِيِّينَ**

﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم : ٥٨]

ولفظ إسرائيل معناه : كما يقول المفسرون صفوة اللَّه أو عبد اللَّه. وأما خطاب اللَّه تعالى لذرية يعقوب عليه السلام مع نسبتهم إليه فقد جاء فى أكثر من أربعين موضعًا.

وأما عن مولده ونسبه فيقول عنه الإمام ابن كثير فى تفسيره : إنه لما تزوج إسحاق عليه السلام وسنه أربعون عامًا ، وكان ذلك فى حياة أبيه إبراهيم عليه السلام فأنجب إسحاق من زوجه توأمين هما العيص ويعقوب. وأحيانا يطلق عليه بعض المؤرخين اسم عيسو ، ولما بلغ يعقوب سن الرشد تزوج وأنجب من الذكور اثنى عشر ولدًا ، حيث أنجب من زوجه « ليا » ستة أولاد هم : راءوبين وشمعون ولاوى ويهوذا وإيساخرا وزابلون ، وأنجب من زوجه « راحيل » اثنين هما يوسف وبنيامين، وأنجب من زوجه « زلفا » اثنين هما جاد وأشير ، وأنجب من زوجه « بلو» اثنين هما دان ونفتالى.

وقد نقل ابن كثير هذه الرواية عن مؤرخى أهل الكتاب الذين أضافوا أن يعقوب عليه السلام عندما دخل مصر كان عمره مائة وثلاثين سنة ، كما أقام بمصر سبع عشرة سنة. ثم لحق بربه وسنه مائة وسبعة وأربعون عامًا ، وقد استأذن يوسف عليه السلام ملك مصر فى الخروج مع أبيه يعقوب ليدفنه عند أهله فى فلسطين ، فأذن له وتم دفن يعقوب عليه السلام ببلده حبرون المسماة الآن الخليل بجوار جده إبراهيم وأبيه إسحاق عليهما السلام[1].

الابتلاء فى الذات

وهل من المعقول .. أن مثل هذا النبى الكريم الذى احتفل به القرآن العظيم، وسرد قبسًا من نور حياته وجهاده فى سبيل إعلاء كلمة اللَّه يتهمه قومه ..

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير ، جـ١ .

بالتزوير ! ! ·· حقيقة إنه شيء لا يصدقه العقل ، بل والأكثر غرابة أن هناك العشرات من المؤرخين المسلمين من الذين نقلوا ذلك عن روايات أهل الكتاب بلا فحص أو مناقشة سواء فى العصر القديم أو الحديث !·

وتلك هى القضية الخطيرة التى نبه إليها أكثر من عالم من علماء الإسلام ، الذين دعوا إلى ضرورة تمحيص كل ما كتبه أهل الكتاب وتابعوهم من المؤرخين!·

وها نحن نجدد هذه الدعوة بدليل ما سوف نذكره حالاً من قصص بها افتراءات عديدة على نبى اللّه يعقوب الذى هو نبى من الأنبياء الأخيار الذين اصطفاهم رب العالمين ، والتى نعتبرها هنا إحدى ابتلاءات هذا النبى الكريم فتعالوا معًا نستمع بآذان حذرة لما سوف نتلوه منقولاً من عدة مصادر كلها نقلت وللأسف عن أهل الكتاب ، بخصوص ما قيل عن النبى الكريم يعقوب عليه السلام فى أخلاقه ! ! ! ·

وما نود أن نشير إليه قبل سرد حالة ابتلاء هذا النبى الكريم فى ذاته ·· هو أن العديد من الأنبياء ومن رسل اللّه الأصفياء قد أصابهم ما أصاب النبى يعقوب ·· إذ لاحقهم قومهم بالإشاعات وافتراء الكذب عليهم ، ومما يزيد الأمر صعوبة فى حالة نبى اللّه يعقوب أن بنى إسرائيل وجميع أهل الكتاب قد لفقوا إليه الاتهامات بما رووه عن حياته زورًا وبهتانًا ، وظلت هذه الافتراءات وللأسف قائمة إلى يومنا هذا بدون تغيير أو تحميص أو تصحيح ، حتى وفق اللّه الأستاذ الدكتور رشدى البدراوى فخصص جزءًا كبيرًا من كتابه « قصص الأنبياء والتاريخ » فى جزئه الثالث - للدفاع عن النبى يعقوب وما أشيع عنه ، وكان دليله فى هذا الدفاع سور القرآن الكريم·

أضف إلى ذلك أن ما التصق بهذا النبى الكريم من افتراءات إنما ارتبط بمسيرة حياته منذ صغره ·· ولم ترتبط فى الواقع بحياته فى حال الرسالة الإلهية أو دوره كنبى كريم·

وسيتضح لنا ذلك بجلاء حين نستعرض معًا ما أشيع عنه من افتراءات ظالمة ابتلى بها من جانب قومه بنى إسرائيل وأكثرها من أهل الكتاب فيما كتبوه بأقلامهم وادعوا أنه منزل من السماء.

ونحن فيما سنرويه ، سنترك التاريخ يقول كلمته من واقع ما سجله أهل الكتاب ونقله عنهم للأسف بعض المفسرين الكبار من أمثال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية ».

وتقول التوراة عن يعقوب عليه السلام .. الإصحاح ٢٥ من سفر التكوين : وكان إسحاق ابن أربعين سنة لما اتخذ لنفسه زوجة هى رفقة بنت بتوئيل - من فدان آرام ، وصلى إسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقرا ، فاستجاب له الرب، فحبلت رفقة ، وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا ؟ فمضت تسأل الرب ، فقال لها : فى بطنك أمتان ، ومن أحشائك يفترق شعبان .. شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد صغيرًا ، فلما أكملت أيامها لتلد. إذا فى بطنها توأمان .. فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر .. فدعوا اسمه عيسو أو العيص وفق رواية ابن كثير ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو .. فدعى يعقوب .. وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما.

هذه هى بداية القصة كما جاءت بالتوراة ! .. مع أن القرآن الكريم حين تحدث عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب - عليهم السلام - لم يشر من قريب أو بعيد إلى عيسو أخيه التوأم ! ، مما يدل دلالة كبيرة على بداية الافتراء فى رواية التوراة على يعقوب عليه السلام ، ولقد أتوا بحكاية أخيه التوأم حتى يصلوا إلى ما سوف يرمون إليه من توجيه إساءات لهذا النبى الكريم ، وهكذا كان عهدهم مع كل أنبيائهم الذين جاءوا بعد يعقوب عليه السلام وبعد سيدنا موسى الكليم .. وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الافتراءات التى كان يوجهها بنو إسرائيل لأنبياء اللّه .. سواء بالتقول أو بالقتل ! !.

والشيء العجيب والمريب فى ذات الوقت أن افتراءات بنى إسرائيل على النبى يعقوب عليه السلام لم تتوقف عند حد بعينه ·· بل تمادوا كثيرًا فيما رووه ·· حتى اتهموه بالتحايل على أخيه عيسو وعلى أبيه إسحاق·

أما بالنسبة لتحايله على أخيه كما تروى ذلك التوراة فقالوا فى التفاصيل : « فكبر الغلامان ·· وكان عيسو إنسانًا يعرف الصيد ·· إنسان البرية ·· ويعقوب إنسانًا كاملاً يسكن الخيام فأحب إسحاق عيسو؛ لأن فى فمه صيدًا ·· وأما رفقة فكانت تحب يعقوب »·

إلى هنا والكلام معقول ·· ولكن الباقى من هذا الحديث المشوه فيه كلام كثير ويستحق تعليقات كثيرة·

المهم ·· أن يعقوب على حسب رواية التوراة - طبخ طبيخًا فأتى عيسو من الحقل وقد أعيا ·· فقال عيسو ليعقوب أطعمنى من هذا الأحمر[قيل عدس أحمر] لأنى قد أعييت ·· فقال يعقوب بعنى بكوريتك !! ·· فقال عيسو : ها أنا ماض إلى الموت ، فلماذا لى بكورية ·· فقال يعقوب : احلف لى اليوم ·· فحلف له· فباع بكوريته ليعقوب ·· فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخًا وعدسًا فأكل وشرب وقام ومضى ·· فاحتقر عيسو البكورية !!»·

انتهت رواية التوراة - ولكى يعرف قيمة أن يكون الإنسان بكرًا لأبيه وأمه كان علينا قراءة هذه الكلمات التى سطرها الأستاذ الدكتور رشدى البدراوى حيث قال : « الابن البكر هو أول ما يولد من الأولاد للرجل ، ولذلك فإن له مكانته الخاصة عند والده »·

وكان للبكورية ·· فى ذلك الزمان القديم امتيازات خاصة ، منها نيابة البكر عن أبيه فى البيت عند غيابه ·· كما كان عُرف هذا الزمان أن الرجل فى أخريات أيامه وعند شعوره باقتراب الأجل يقسم ماله على أبنائه على أن يعطى الابن البكر نصيب اثنين من هذه الأموال·

ليس هذا فقط. بل وكان الابن البكر هو الذى يختص بالبركة على شرط أن يكون مستحقًا لها وإلا فتعطى لغيره !.

هذه أولى الادعاءات الباطلة على نبى اللَّه يعقوب حيث اتهمه بنو إسرائيل بالخداع والحيلة ضد أخيه البكر عيسو. ومما يدل على عدم صدق هذه الرواية .. وافترائهم على يعقوب عليه السلام أن القرآن الكريم لم يذكر إلا يعقوب عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾.

أضف إلى ذلك كيف يكون لشاب من صلب خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وولده النبى إسحاق عليه السلام أن يتصف بالخديعة والمكر ضد أخيه الكبير !!. وذلك قولهم بأفواههم وكذلك كتبوه بأقلامهم فيابئس ما قالوا وما كتبوا !.

والغريب أن بعض المؤرخين المسيحيين قد تناولوا هذا السلوك من جانب يعقوب عليه السلام .. حيث وصفوه بالانتهازية والوصولية واستغلال حاجة الغير لاغتصاب الحقوق !! ، هؤلاء الذين تعجلوا هذا الرأى لم يسمحوا لأنفسهم بقدر كاف من التفكير فى صفات وأخلاق أنبياء اللَّه الذين يختارهم بعناية شديدة حيث قال : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ هذا الاصطفاء وهذا الاختيار كان له مدلول كبير .. إذ كيف يكون نبى اللَّه ورسوله مثلاً غير صادق أو غير أمين؟ ! ، وهو المكلف بتبليغ رسالة اللَّه بالتوحيد إلى عباده العاصين ؟ !. طبعًا إنه شىء غير معقول وغير مقبول بالمرة.

وأما ثانى هذه الادعاءات التى ابتلى بها يعقوب عليه السلام من قومه من بنى إسرائيل. وهى أيضًا باطلة بطلانًا مؤكدًا من غير مناقشة .. أن بنى إسرائيل وأهل الكتاب فيما رووه وكتبوه فى أوراق كتبهم قد اتهموا يعقوب عليه السلام بالتحايل والخداع ضد أبيه أيضًا وذلك لكى ينال بركته ويحمل من بعده رسالته ! فهل ذلك يعقل ؟ !. وكيف يتحايل ويخدع نبى أباه النبى الكريم إسحق عليه السلام ؟ !.

وتقول التوراة فى التفاصيل عن ذلك فى الإصحاح ٢٧ تكوين : « ٠٠ وحدث أن شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر ، وأنه دعا عيسو ابنه الكبير وقال له : يا بنى، إنى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى ٠٠ والآن خذ عدتك وجعبتك وقوسك واخرج إلى البرية ٠٠ وتصيد لى صيدًا ٠٠ واصنع لى أطعمة كما أحب ٠٠ وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل الموت٠

وكانت رفقة سامعة ٠٠ فذهب عيسو إلى البرية وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائله : إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً : ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل موتى ٠٠ فالآن يا بنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به ٠٠ اذهب إلى الغنم وخذ من هناك جديين من المعز فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يُحب فتحضرهما لأبيك ليأكل حتى يباركك ٠٠ فقال يعقوب لرفقة ٠٠ هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا أملس ٠٠ ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة ، فقالت له أمه : لعنتك على يا بنى ، اسمع لقولى ٠٠ فذهب وأحضر لأمه فصنعت له أطعمة كما كان أبوه يُحب ، وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها وألبست ابنها يعقوب ، وألبست يديه وملاسة عنقه من جلود جديى المعز وأعطته الأطعمة والخبز التى صنعت ، فدخل إلى أبيه وقال : يا أبت ، فقال هأنذا ٠٠ من أنت يا بنى ٠٠ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك ، قد فعلت كما كلفتنى ٠٠ قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ٠٠ فقال إسحق لابنه : ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى ؟ !٠ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لى٠

فقال إسحق : تقدم لأجسك يا ابنى ٠٠ أأنت هو عيسو ابنى أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحق فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ، ولم يعرفه ؛ لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى أخيه عيسو ٠٠ فباركه ، وقال هل أنت هو عيسو ابنى ٠٠ فقال أنا هو فقال له : قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك

نفسى ٠٠ فقدم له فأكل وأحضر له خمرًا فشرب ، وقال له إسحق تقدم يا بنى ٠٠ وشم إسحق رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب ، فليعطك اللَّه من ندى السماء ومن دسم الأرض٠ وفرغ إسحق من مباركة يعقوب ، وانصرف يعقوب ! ٠٠

وحدث أن عيسو أتى بصيده وصنع طعامًا كما أمره أبوه ، ودخل به إلى أبيه ٠٠ فقال له إسحق من أنت ؟ ! ٠٠ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو ، فارتعد إسحق وقال : فمن هو الذى اصطاد صيدًا وأتى به فأكلت وباركته ؟ ! ، فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه : باركنى أنا أيضًا يا أبى ، فقال : قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك ، فقال : ألا إن اسمه يدعى يعقوب ٠٠ فقد تعقبنى الآن مرتين ! ، أخذ بكوريتى ، وهو ذا الآن قد أخذ بركتك٠ فحقد عيسو على يعقوب من أجل البركة٠ التى باركه أبوه ٠٠ وتوعد يعقوب بالقتل ، وكان يتكلم بصوت خفيض ، ولكن رفقة سمعته ٠٠ فأرسلت ودعت يعقوب وأخبرته أن عيسو ينوى قتله ٠٠ وقالت له : قم واهرب إلى أخى فى لابان فى حاران٠ وأقم عنده حتى يهدأ غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به » ! !٠

ويؤكد الدكتور البدراوى ، أن كثيرًا من الكُتاب والمفسرين قد اعترضوا على هذه القصة خاصة ، لأسباب تتعلق بإلصاق الخطيئة والغش لنبى اللَّه يعقوب ونسبة الغفلة لنبى اللَّه إسحق٠

والدكتور البدراوى نفسه قد اعترض بدوره على هذه الادعاءات ، مؤكدًا أننا أعلم الناس بتحريف أهل الكتاب للتوراة ، ومن الأليق بمقام النبوة الذى كان عليه إسحق ألا ننسب إليه الانخداع ، والأليق أيضًا بمقام النبوة الذى سيصير عليه يعقوب ألا ننسب إليه مكرًا ٠٠ وهكذا نجد أن هذا النبى الكريم قد تحمل فى حياته مكر بنى قومه ، وإيذاءهم له فى ذاته ٠٠ بالتقول والادعاء بالباطل وبما ليس فيه ٠٠ وإزاء هذا الصبر وعده اللَّه بالخير ، وجعل فيه وفى ذريته وأولاده النبوة !٠

وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن نبى اللّه يعقوب قد أصيب فى حياته بهذا الابتلاء ! ، الأمر الذى جعله يترك مسقط رأسه ورأس أبيه ويعيش بعيدًا بعد ما تزوج وأنجب اثنى عشر ولدًا ٠٠ كانوا هم أيضًا سببًا فى إصابته بالابتلاء الثانى كما سنفسر ذلك حالاً !٠

الابتلاء فى الأولاد

من أسوأ الأشياء على نفس الإنسان ، خاصة ذات المعدن الطيب ٠٠ أن يرى الحقد والبغضاء منتشرين بين أولاده ! ! ، ذلك لأن الأمنية الغالية لكل منا أن يصنع رجالاً داخل أسرته ومجتمعه الصغير ، هؤلاء الرجال لابد وأن يسود الحب فيما بينهم حتى ينفعوا أنفسهم وأهليهم ومجتمعهم ! ، وكثيرًا ما يبذل كل منا جهده وحياته وأمواله لأجل الوصول إلى هذه الغاية العظيمة ٠٠ فيرى الحب والإخلاص والتعاون يسود بين أولاده ، ويظل ذلك الحب مرفرفًا بأجنحة الملائكة على البيت الذى فيه هذه الأسرة المتحابة فى اللّه ! ، فما بالنا بأسرة نبى كريم اصطفاه رب العالمين لكى يكون نبيًا يدعو له بالتوحيد ونبذ عبادة الأصنام ! ؟ !٠

فقد رزق اللّه نبيه يعقوب عليه السلام باثنى عشر طفلاً من ثلاث زيجات بخلاف بنت واحدة هى دينة كان أعزهم على نفسه الولدين الأخيرين من حيث الإنجاب وهما يوسف عليه السلام وبنيامين ابنا زوجه الأخيرة وفق الإجماع بين المؤرخين وهى السيدة راحيل !٠

هؤلاء المؤرخون قسموا أولاد هذا النبى الكريم وفق هذا الترتيب : أنجب يعقوب عليه السلام أربعة أولاد من زوجه الأولى « ليئة ابنة خالة « لابان » كما تقول التوراة ٠٠ وهم : راوبين (روبيل) شمعون - لاوى - يهوذا٠

ثم أنجب من زوجه الثانية « بلهة جارية راحيل » اثنين هما : دنا -

نفتالى ومن زوجه الثالثة « زلفة » جارية « ليئة » أو « ليا » كلاً من الطفلين حادا واشير.

ثم عادت زوجه « ليئة » وأنجبت له ثلاثة أطفال أيضًا وهم : دينه وهى طفلة ويساكر المعروف فى العربية باسم إيساخر وزبولون المعروف باسم رابلون .. ثم أنجبت له زوجه الأخيرة راحيل كلاً من يوسف وبنيامين !.

فكان لهذا النبى سعادة لا توصف وهو يعيش وسط هذه الكوكبة من الأولاد .. وقد أخذ يزرع بينهم الحب والمودة والإخلاص لولا تدخل الشيطان الذى لعب برؤوس بعضهم لأجل التخلص من البعض الآخر ! !.

هذا الشيطان اللعين الذى لم تنفع معه دعوات هذا النبى الأمين الذى تفرغ لهداية قومه ودعوتهم لنبذ عبادة الأصنام وعبادة اللَّه الواحد الأحد.

ولقد أراد اللَّه بابتلاء هذا النبى الكريم فى أولاده أن يختبر قوة صبره وإيمانه رغم وجوده فى مصاف الأنبياء من البشر المصطفين الأخيار.

وقد صبر يعقوب النبى على هذا الابتلاء .. متقبلاً قضاء اللَّه وقدره فى صبر وتحمل من دون شكوى أو ضجر.

إن العديد من المصادر التاريخية قد أكدت أن نبى اللَّه يعقوب عليه السلام ظل هو وأولاده فى بلدة حبرون يدعو الناس للهداية وعبادة اللَّه .. خاصة لمن كانوا حوله من قبائل الكنعانيين ، وهو فى ذلك لم يأت بشريعة جديدة ، بل ظل يدعو اللَّه وفق شريعة جده إبراهيم عليه السلام .. وكان عمره آنذاك ٦١ عامًا.

وفى ظل هذا الجو الملىء بالتقوى والإيمان والدعوة إلى اللَّه تعالى ، عاش يعقوب عليه السلام فى أمان اللَّه ورعايته بعدما تزوجت ابنته الوحيدة « دينة » وحوله أولاده الأحد عشر ، لولا ما بدأ يشعر به آنذاك من بوادر سيطرة شيطانية على إرادة

أولاده من الذين أخذوا يعدون عدتهم للتخلص من أحب أبنائه إليه وهو يوسف عليه السلام وأخيه بنيامين !.

ولقد اهتم القرآن الكريم بابتلاء يعقوب عليه السلام فى أولاده اهتمامًا كبيرًا بدا واضحًا فيما جاء من آيات بينات فى سورة يوسف عليه السلام.

وتكاد تجمع معظم المصادر التاريخية على أن هذه المؤامرة التى راح ضحيتها النبى يوسف عليه السلام ، إنما وقعت له وهو فى سن التاسعة أو السابعة من عمره .. بينما كان أخوه بنيامين يبلغ من العمر عامًا واحدًا فقط !.

كذلك أنبأنا القرآن الكريم أن سيدنا يعقوب عليه السلام ، كان يعرف مسبقًا ما كان سوف يقع لابنه مع بقية أولاده ، وقد ضاق بهم من أفعالهم .. وفى ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ قَالَ يَابُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف : ٤- ٥].

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [يوسف : ٧-٨]

ورغم معرفة يعقوب النبى عليه السلام بهذا الابتلاء ، فقد صبر عليه وأخذ يتعامل مع هذا الموقف وفق ما يمليه عليه اللّه تعالى من وحى ونبوة فقد عرف أن كل شىء من تدبير العلى القدير .. وعليه بالصبر ودعوة اللّه أن يفرج كربه وشدته !.

وأخذ هذا النبى يدعو أولاده الباقين بعدما أخبروه بضياع يوسف ! ، بضرورة السعى الدؤوب فى البحث عنه لإرجاعه إليه مرة أخرى ! ، وقد كتم فى نفسه همًا عظيمًا .. إذ كان يشعر أن هؤلاء الإخوة هم الذين يقفون وراء هذا الغياب لابنه الصغير يوسف عليه السلام.

ولنا أن نتصور ولو للحظات الموقف الصعب الذى كان عليه يعقوب عليه السلام حين عاد إليه أبناؤه ليخبروه باختفاء أخيهم الصغير يوسف ، قال المفسرون عن ذلك : «لما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم فى العشاء ما بين المغرب وعتمة الليل جاءوه وهم يبكون وقالوا له إن الذئب أكل يوسف ، إذ تركوه عند متاعهم وذهبوا وهم الكبار ليتسابقوا ، فأكله الذئب فى غيبتهم .. وقالوا لأبيهم ، ولن تصدقنا فى الذى أخبرناك به من أكل الذئب له.

وكانوا قد عمدوا إلى شاة صغيرة فذبحوها وأخذوا من دمها ووضعوه على قميصه ليوهموا أباهم بأن ما رووه عن أكل الذئب إنما هو قصة صحيحة ، ولعل يعقوب عليه السلام قد ارتاب فى رواية أولاده هذه لعلمه المسبق بعداوتهم ليوسف وحقدهم عليه !.

ولم يكن أمام يعقوب عليه السلام إلا الصبر على مصيبته هذه فى فقده ولده المحبوب لديه ، والصبر كذلك على أفعال بقية أولاده التى كان يقف وراءها الشيطان الملعون ، وقد استعان يعقوب عليه السلام بالله وبرحمته على هذا الابتلاء الذى عرف أن لا سبيل له فى دفعه ، ولابد لقضاء الله أن يتم.

ومع الصبر الذى كان عليه يعقوب عليه السلام .. ابتلاه ربه بالمرض خاصة فى عينيه .. على إثر فقد ولده وأفعال بقية أولاده وحقدهم وحسدهم على أخيهم الصغير.

الابتلاء فى الصحة

لقد سبق لنا أن ذكرنا أن الله تعالى حين اختبر يعقوب عليه السلام وابتلاه فى أولاده وابنيه يوسف وبنيامين. كان يبلغ من العمر آنذاك اثنين وستين عامًا وفق الإجماع.

ولنا أن نتصور حال مثل هذا الشيخ الوقور الذى اجتهد كثيرًا من أجل إبلاغ رسالة اللَّه ونبوته فيما يخص الدعوة لعبادته من دون الأصنام ، وما تحمله من مشاق فى سبيل تحقيق هذه الدعوة ، إلى جانب ما ابتُلى به من آلام نفسية عندما اختفى ولده الصغير وتفرق بقية إخوته.

ولو كان ذلك الأمر قد توقف بالنبى يعقوب عند تبعات الدعوة إلى اللَّه ومشاقها لأصبح ذلك الأمر هينًا ، ذلك لأن اللَّه يرسل رسله وأنبياءه مسلحين بالتأييد والقوة والصبر وحسن الخلق والنصر المبين.

ولكن ما زاد من ضعف ووهن هذا النبى الكريم ، هو كبر سنه إلى جانب ما لاقاه من حسد وحقد بقية أولاده على أخيهم الصغير يوسف. وقد أصابه ذلك بهم وغم كبيرين نجم عنهما أن أصيبت عيناه بالعمى المؤقت من كثرة بكائه على فراق ولده يوسف. وظل حزن هذا النبى يكبر يومًا بعد يوم .. كلما زادت الأيام وحشة ببعاد ابنه يوسف .. حتى أصيب من جديد فى ابنه بنيامين الذى تركه إخوته لدى يوسف عليه السلام عندما ذهبوا إلى مصر لابتياع حاجاتهم من الغلال !.

ويروى لنا ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِي ۞ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ۞ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [يوسف : ٥٨-٦٢].

ويقول الإمام الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآيات : اعلم أنه لما عم القحط فى البلاد ووصل أيضًا إلى البلدة التى كان يسكنها يعقوب عليه السلام .. وصعب الزمان عليهم فى فلسطين بالشام .. فقال لبنيه : إن بمصر رجلاً صالحًا يمير الناس : أى

يعطيهم الطعام وما هم فى حاجة إليه فى معاشهم فاذهبوا إليه بدراهم ، وخذوا منه الطعام ، فخرجوا إليه وهم عشرة ولم يبق منهم سوى « بنيامين » مع أبيه يعقوب ودخلوا على يوسف ، وصارت هذه الواقعة ، السبب فى اجتماع يوسف مع إخوته وظهور صدق ما أخبر اللَّه عنه فى قوله ليوسف حال ما ألقوا به فى الجب : ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

ويقول شيخ الإسلام الدكتور محمد سيد طنطاوى أيضًا فى تفسيره للآيات السابقة. « وجاء إخوة يوسف من بلادهم الشام متجهين إلى مصر؛ ليلتمسوا فيها وسائل العيش بعدما أصاب فلسطين القحط « فدخلوا عليه : أى : على يوسف بعد أن وصلوا إلى مصر « فعرفهم » يوسف بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فلم يعرفوه لطول عهد فراقهم ، ولقلة اهتمامهم بشأنه بعد أن القوا به فى الجب ، وللمنصب العظيم الذى صار يشغله ، وهم ما توقعوا أن يصل يوسف إلى هذا المنصب ، ويؤكد الدكتور طنطاوى أن هذا اللقاء كان هو اللقاء الأول بين يوسف وإخوته بعدما ألقوه بالجب، ويرى بعض المفسرين أن هذا اللقاء قد تم بعد أكثر من ثلاثين عامًا من وقوع حادث الجب المشهور. ولقد وجدها يوسف عليه السلام فرصة سانحة لأجل أن يجمع شمل أسرته وأبيه مرة أخرى بعد هذا الفراق الطويل .. فاخترع حيلة يستطيع من خلالها أولاً أخذ أخيه الصغير بنيامين الذى كان فى أرض فلسطين مع أبيه. ثم بعد ذلك يأتيه كل إخوته وأبوه يعقوب.

وفى ظل ما كانت تعانيه بلادهم آنذاك من مجاعة شديدة وما رأوه فى مصر من بحبوحة العيش .. أقنعوا والدهم بضرورة أن يصحبهم بنيامين فى هذه الرحلة، وأمام إصرارهم وافق يعقوب عليه السلام .. وفى ظل غيابه وأخيه يوسف من قبل ، بل وكل أبنائه .. زادت آلامه .. وكان مع ذلك يؤمن بأن اللَّه لن يخيب دعاءه ولسوف يجتمع مع كل أولاده من قبل رحيله. ويذكر لنا القرآن الكريم إصرار الأولاد على اصطحاب أخيهم

الصغير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَاأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

فاستجاب لهم والدهم تحت ضغط الحاجة كما جاء بالقرآن الكريم ، مع تخوفه منهم نظرًا لأعمالهم السابقة .. وخشيته من تكرار تجربة فقدانه ليوسف كما حدث من قبل !.

وعن ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾.

ولقد ظلت عاطفة الأبوة فى مقدمة إحساسات يعقوب عليه السلام .. حتى أنه وقف يودعهم بقوله : ﴿ يَابَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ فياله من إحساس نابض بالحيوية ، يقابل الإساءة بالإحسان ، وهكذا دائمًا يكون الآباء فى ظل جحود الأبناء.

وفى تفسير كريم لهذا الموقف للشيخ الشعراوى قال : إن يعقوب عليه السلام أحس أن أولاده أصبح لهم شأن وهم أغراب ، وهم حين يذهبون لإحضار القمح يغادرون قريتهم إلى قرى غريبة ، فقد يكيد لهم الناس حين يعلمون أن معهم كميات كبيرة من الطعام ، وأولاد يعقوب كانوا أحد عشر بانضمام بنيامين لهم ، وربما خشى عليهم أبوهم من الحسد .. كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، فكأن يعقوب يخشى على أولاده من الحسد ، وهو يستعيذ بالله من ذلك ، مما يدل على أن البشر لا يقى نفسه من الحسد إلا بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى[1].

ولما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم من دون « بنيامين » لا شك ازدادت حالة يعقوب الصحية سوءًا ولكن الله تعالى لم يتخل عنه فطمأن قلبه وأخبره بقرب

---

(١) قصص الانبياء - الشيخ الشعراوى ، جـ١٤ .

انفراج هذه الغُمة ، ولذلك نراه يقول كما جاء القرآن الكريم : ﴿ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾.

وبالفعل عاد إخوة يوسف إلى مصر للمرة الثالثة .. وذلك كما أمرهم أبوهم ، وكانت حالتهم وحالة والدهم قد ساءت .. حيث فقد يعقوب البصر ، ولم يعد يقوى على العمل ، وظل قابعًا فى مكانة حزينًا يعيش على رحمة اللَّه والأمل فى انفراجة قريبة ، هذه الانفراجة التى جاءت مع حدوث ذلك اللقاء التاريخى الذى تم بين يوسف عليه السلام وبين إخوته ، والذى يصوره لنا القرآن فى قوله تعالى : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٩٣]

وبالفعل اجتمع شمل يعقوب عليه السلام وأولاده مرة أخرى فوق أرض مصر ، تحقيقًا لوعد اللَّه تعالى سواء ليعقوب عليه السلام أو لابنه يوسف عليه السلام ، ونراه هنا قد عاش قرير العين حتى توفاه اللَّه ، فنقله يوسف إلى أرض فلسطين مرة أخرى ليدفن هناك بجوار زوجه « راحيل » ، وذلك على اتفاق المؤرخين.

وكان ما كان من أمر ابتلائه ، وصبره الجميل على هذه الابتلاءات وقد عوضه اللَّه خيرًا .. وهو النبى الكريم الذى تقبل فى رضًا وقنوت حكم اللَّه فيه وفى أولاده.

* * *